

## رثاء الأندلس

وما يحتويه من العناصر واللحقات التاريخية

للأستاذ محمد عبد الله عنان

نشرت (الرسالة) في الأسبوع الماضي قصيدة رائمة هي رثاء مؤثر للأندلس بقلم شاعر أندلسي مجهول ؛ ومهد لها الأديب المغربي الذي بحث بنصها إلى الرسالة بكلمة ذكر فيها أن هذه القصيدة نشرت بنصها الكامل في الجزائر لأول مرة سنة ١٩١٤ ، وأن صحيفة الزهرة التونسية نشرت منذ أعوام بعض مقاطعها وطلبت إلى الأدباء أن يدلوا على ناطقها إذا استطاع أحدهم إلى ذلك سيلا ، ولكن أحدا منهم لم يظفر بالجواب ؛ وأنه عرضها على مؤرخ الذرب الكبير السيد الذكالي السلاوي ، فذكر أن ناطقها ربما كان أبا جعفر بن خاتمة وهو من أدباء المرية كما يستدل من بعض أبياتها ، وأنها ربما كانت من محتويات كتابه السمي « ربة المرية » الذي توجد منه نسخة مخطوطة بمكتبة الاسكوريال ؛ ويرجو الأديب المغربي في خاتمة كلمته أن يوفق أحد الأدباء المشتغلين بالأدب الأندلسي إلى معرفة ذلك الشاعر المجهول فيملن اسمه

والحق أن القصيدة رائمة مبكية ، وليس من ريب في أن ناطقها أديب كبير وشاعر بارع ؛ ومن حق الأدب أن يعرف هذا الشاعر المبدع وأن تحقق سيرته ؛ بيد أننا نترك هذا البحث لمؤرخ الأدب الأندلسي في عصر السقوط ؛ وفي رأينا أن أهمية القصيدة ليست في قيمتها الأدبية ، بل إن أهميتها ترجع بوجه خاص إلى ما تضمنته من الاشارات واللحقات التاريخية لحوادث المساة الأندلسية ؛ وهي بهذا الاعتبار وثيقة تاريخية لها قيمتها ؛ ولهذا رأينا أن نؤثرها بتحليل عناصرها الواقعية ، وإيضاح ما فيها من الاشارات واللحقات التاريخية

وأول ما يجب تحقيقه هو الفترة التي وضعت فيها القصيدة ؛ وفي تعيين هذه الفترة تحقيق للعصر الذي عاش فيه الشاعر ،

وللظروف والملابسات التي أساطت به ؛ وهذه الفترة على ما يبدو من كثير من مقطوعات القصيدة هي الفترة التي تلت سقوط غرناطة مباشرة ؛ ونحن نعرف أن غرناطة سقطت في أيدي النصارى في صفر سنة ٨٩٧ هـ (ديسمبر سنة ١٤٩١) ودخلها جنود فرديناند الكاثوليكي في الثاني من ربيع الأول ( ٢ يناير سنة ١٤٩٢ ) ؛ وكانت قواعد الأندلس قد سقطت قبل ذلك كلها تباعاً في أيدي النصارى ؛ فسقطت مالقة في شعبان سنة ٨٩٣ هـ ( ٢١٤٨٧ ) ، ووادي آش والنكب والمرية في أواخر سنة ٨٩٤ هـ ( ١٤٨٩ ) ، وبسطة في المحرم سنة ٨٩٥ (ديسمبر سنة ١٤٨٩) ، وهي آخر قاعدة أندلسية سقطت قبل غرناطة ؛ أما رنذة التي يستهل الشاعر قصيدته بالإشارة إليها فقد سقطت في يد النصارى في سنة ١٤٨٥ هـ ( ٨٩٠ هـ ) ؛ ويبدو من أقوال الشاعر المؤسفة من رنذة أنه ربما شهد سقوطها ، وأن هذا الحادث قد ترك في نفسه أثراً عميقاً يتردد بقوة في روعة استهلاله ، وهو أبداع مقطوعة في القصيدة :

أحقاً خبا من جو رنذة نورها وقد كفت بمذاشموس بدورها  
وقد أظلمت أرجاؤها وترزلت منازلها ذات الملا وقصورها  
أحقاً خليلي أن رنذة أقفرت وأزهج عنها أهلها وعشيرها  
وهدت مبانيها وثلت عروشها ودارت على قطب التفريق دورها  
بل يلوح لنا أن الشاعر ربما كان من أهل رنذة وقت

سقوطها ، وأن اشارته فيما بعد إلى المرية بقوله :

منازل آباء الكرام ومنشئ وأول أوطان غداني رخيرا  
لا يذهب إلى أكثر من أن المرية كانت موطن أسرته  
ومسقط رأسه ، وأنه قضى بها حدانته الأولى ، وربما كان ذلك حوالي سنة ٨٦٠ هـ ، وأنه وقت سقوط رنذة كان رجلاً ناضجاً يقف على مجرى الحوادث العامة وقوفاً تاماً

ولنرجع إلى الفترة التي وضعت فيها القصيدة ، فنقول إنه من المحقق مبدئياً أنها كتبت بعد سقوط غرناطة ؛ وليس هناك ما يدل على أنها كتبت لترسل إلى السلطان بايزيد الثاني العثماني كما يظن الأديب المغربي الذي تولى نشرها . ذلك أن رسائل الاستفانة التي وجهها زعماء الأندلس إلى السلطان بايزيد الثاني ، وإلى الأشرف قايتباي ملك مصر ، وجهت منذ بدء الصراع

وكونها كانت حصن الأندلس من الغرب ، فلما سقطت سقطت قواعدها في يد العدو تباطا ؛ ويشير الشاعر بمد ذلك إلى سقوط بلش مالقة (Velez Malaga) في قوله :

وبلش قطت رجلها يمينها ومن سرعان الداء بان قطورها  
وختمت على تلك الثنيات ججورها

فأقفر مغناها وطاشت حجورها

وكان سقوط بلش وهي حصن مالقة من الشمال الشرق في جمادى الأولى سنة ٨٩٢ هـ (ابريل سنة ١٤٨٧ م) وعلى أثر سقوطها حاصر النصارى مالقة واستولوا عليها في شبان من هذه السنة (أغسطس سنة ١٤٨٧)

ولما استولى النصارى على مالقة أخذت ثغور الأندلس وقواعدها الباقية تسقط تباطا في يد النصارى فسقطت المرية والنكب في أواخر (سنة ٨٩٤ هـ - ١٤٨٩ م) ، وسقطت بسطة في المحرم سنة ٨٩٥ هـ (ديسمبر ١٤٨٩ م) ؛ ثم استولى النصارى على وادي آش قاعدة مولاي عبد الله (الزغل) في شهر من تلك السنة (يناير ١٤٩٠ م) ؛ ويشير الشاعر إلى هذه الوقائع بمد ذلك في قوله :

وبالله إن جئت المنكب فاعتبر فقد خف نادبها وجف نضيرها  
وقد رجفت وادي الأثى فبقاهما

سكارى وما استناكت بخمر ثغورها

وبسطة ذات البسط ما شمعت بما

دهاها وأنى يستقيم شعورها

وما أنس لا أنس المرية إنها قتيلة أوجال أزيل عذارها

ولم يبق بمد سقوط هذه القواعد في يد المسلمين سوى غرناطة ، وقد سقطت في يد العدو في صفر سنة ٨٩٧ هـ (ديسمبر سنة ١٤٩١ م) ؛ وإلى ذلك يشير الشاعر خلال ما تقدم :

ألا ولتقف ركب الأسي بمالم قد أرتج بادبها وضح حضورها  
بدار الملى حيث الصفات كأنها

من الخلد والمأوى غدت تستطيرها

محل قرار الملك غرناطة التي هي الحضرة العليا زهتها زهورها

الأخير ، أعنى منذ حصار مالقة وقبل سقوطها في سنة ٨٩٢ هـ (١٤٨٧ م) ؛ ولكن الاستغناء لم تكن شيئاً ، وسقطت قواعد الأندلس تباطاً في يد النصارى على النحو الذي فصلنا (١)

ولما اشتد النصارى في معاملة المسلمين بمد سقوط غرناطة ؛ وأرغوم على التنصر ، وعصفت بهم محاكم التحقيق (محاكم التفتيش) ، كتب بعض كبارهم إلى بايزيد الثاني في أواخر عهده يستغيث به ، وذلك حوالي سنة ١٥٠٥ م ، أعنى بمد سقوط غرناطة بنحو أربعة عشر عاماً ، وقد استتال مهد بايزيد الثاني حتى وفاته في سنة ١٥١٢ م ؛ وقد نقل الينا القرى هذه الرسالة في كتابه «أزهار الرياض» (٢) ونقل الينا معها شعرا مؤثراً يصف به صاحب الرسالة عسف محاكم التحقيق ، ويبدو من أسلوب هذه الرسالة والشمر كيف انحدرت اللغة المرية وآدابها في الأندلس في تلك الفترة بسرعة مدهشة ، وكيف استطاعت السياسة الاسبانية في مدى قصير أن تخذل جذوة الشمر والأدب

أما القصيدة التي نحن بشأنها فيبدو أنها كتبت قبل ذلك بحين ، والمرجح أنها كتبت في سنة ٩٠٤ أو ٩٠٥ هـ (سنة ١٥٠٠ م) . ولنا على ذلك أدلة عديدة ، منها قوة القصيدة وروعتها مما يدل على أنها كتبت عقب الفاجعة بأعوام قلائل قبل أن يخف وقمها في النفوس ، وقبل أن يحدث السياسة الاسبانية أثرها في قتل اللغة المرية ؛ ومنها الترتيب التاريخي الذي اتبعه الشاعر ، فهو يورد الحوادث تباطا بترتيبها التاريخي ، فإذا استثنينا اشارته إلى غرناطة ؛ ويبان ذلك أنه يبدأ بالإشارة إلى سقوط رندة ، وقد كانت أول قاعدة سقطت في أيدي النصارى سنة ٨٩٠ هـ (١٤٨٥ م) كما قدمنا ؛ ثم يتبعها بالإشارة إلى سقوط مالقة في قوله

فمالقة الحناء نكلى أسيفة قد استفرغت ذبحا وقتلا حجورها  
وجزت نواصيا وشلت يمينها وبدل بالويل المبين سرورها  
وقد كانت الغريبة الجنن التي تقيمها فأنحى جنة الحرب سورها  
وفي هذا البيت الأخير إشارة فطنة إلى موقع مالقة ومناعتها

(١) راجع تفاصيل هذه الحوادث والمراسلات المؤثرة في كتابي

«دبر الاسلام» ص ١٣٤ وما بعدها وللراجع

(٢) أزهار الرياض (طبع تونس) ص ٥٩ - ٦١

أبو البقاء الرندي في رثاء الأندلس ، وأنه استمد منه بعض الوحي  
والمنى ؛ فقوله مثلاً :

فوا حمرنا كم من مساجد حولت

وكانت الى البيت الحرام شطورها

ووا أسفا كم من صوامع أوحشت

وقد كان معتاد الأذان يزورها

فحجراها يشكو لمنبرها الجوى وآياتها تشكو بإفراق وسورها

مستمد من قول أبي البقاء في مرثيته :

حيث المساجد قد صارت ككنائس ما

فيهن إلا نواقيس وصلبان

حتى المحاريب تبيكي وهي ساجدة حتى الناظر ترى وهي عيدان

وقوله :

وكم طفلة حسناء فيها مصونة

إذا أسفرت يسبي العقول سفورها

تميل كغصن البان مالت به الصبا وقد زانها ديباجها وحريرها

فأضحت بأيدي الكافرين رهينة وقد هتكت بالرغم منها ستورها

مستمد من قول أبي البقاء :

وطفلة مثل حسن الشمس إذ ظلمت

كأنما هي ياقوت ومرجان

يقودها الملعج للمكروه مكرهة والعين باكية والقلب حيران

وهكذا في مواطن أخرى . بيد أن شاعرنا يفيض في نظمه وفي

تصوره قوة وطرافة ، وليس من ريب أن مرثيته المفجعة من

أبلغ وأروع ما رثيت به دولة الاسلام في الأندلس

محمد عبد الله همام

ترى الأسمى أعلامها وهي خشع ومنبرها مستعبر وسريرها  
ومأمومها ساهى الحجى وإمامها وزائرها في ماتم ومزورها  
فهذا الترتيب التاريخي الدقيق الذي أتبعه الشاعر في قصيدته ،  
وروعة نظمه ، وما يبدو خلال قصيدته من عميق تأثره بالحوادث  
التي وصفها ، مما يدل بحمدانة عهده بالمسأة حين وضع رثاءه المفجع ؛  
بيد أن هنالك أيضاً في قصيدته ما يكاد يمين هذا المهمد في نظرنا  
وهو قوله :

وجاءت الى استئصال شأفة ديننا جيوش كموج البحر هبت دبورها

علامات أخذ مالنا قبل بها جنائيات أخذ قد جناها مثيرها

فلا تمنحني إلا بمحو أسوؤها ولا تنجلي حتى تخط أسورها

مما شتر أهل الدين هبوا اصعقة وصاعقة وارى الجحوم ظهورها

أصابت منار الدين فأنهد ركنه وزعزع من أكنافه مستطيرها

فهذه الاشارات تنصرف في نظرنا الى أول محاولة قام بها

الاسبان لتتصير المسلمين ، ونقض عهودهم التي قطعوها لهم عند

تسليم غرناطة باحترام دينهم وشرائعهم ، وتأمين أشخاصهم

وأعراضهم وأموالهم وحرابهم . وكانت ذلك سنة ٩٠٤ هـ

( ١٤٩٩ م ) حينما قرر مجلس الدولة أن يفرض التصير على

المسلمين ، وذلك لأعوام قلائل فقط من سقوط غرناطة . بل

يلوح لنا أن الشاعر يشير بقوله :

ألا واستعدوا للجهاد عزائمنا يلوح على ليل الوغى مستنيرها

بأسد على جرد من الخيل سبق يدع الأعدى سبقها وزئيرها

بأنفس صدق موقنات بأنها

إلى الله من تحت السيوف مصيرها

إلى الثورة التي حاولت بمض المناطق الاسلامية أن تقوم

بها مقاومة لقرار التصير ؛ ويلاحظ هنا أن الشاعر يقف عند

هذه الواقعة في الإشارة إلى الحوادث التاريخية مما يدل على أنها

آخر حادث أدركه وقت نظم مرثيته ؛ فإذا صح الاستنتاج الذي

سقتناه على النحو المتقدم ، فإنا نستطيع أن نقول إن الشاعر وضع

مرثيته كما قدسنا حوالى سنة ٩٠٤ أو ٩٠٥ هـ ( نحو

سنة ١٥٠٠ م )

هذا وما يلاحظ أيضاً أن الشاعر قد تأثر في مواطن كثيرة

من قصيدته بالقصيدة الطائرة الصيت التي نظمها سلفه ومواطنه

نظر همدان كتاب :

نقد كتاب حياة محمد

للأستاذ عبد الله القصيمي النجدى

فيه بيان الأغلاط العلمية والدينية الواقعة في كتاب

هيكل : ( حياة محمد )

( ويباع بمكاتب القاهرة ومنه معرون منها )